ميزان المعرفة الدينية

السيّد جعفر سيدان

مدونة سفيد

http://Safeed.blogspot.com

الفهرس

نشرت هذه المقالة باللغة الفارسية في عام ١٣٦٤ ش.ق. الموافق لنهاية عام ١٩٨٥ وبداية عام ١٩٨٦م في مجلة كيهان، وهي إجابة على تساؤل طرح ضمن ضمن إحدى المقالات في عددٍ سابق، وقد ترجمت للعربية ونشرت بعدة مجلات ودوريات بعد ذلك.

ترجمة وتعليق: ماجد الكاظمي

إعداد وتنسيق: سفيد



تمهيد

يعتبر السيّد جعفر سيدان حاليًا أحد رموز وأعلام مدرسة التفكيك[١] التي أسسها ونظمها علم من أعلام الفلسفة قبل أن يتركها وهو الميرزا مهدي الأصفهاني رحمه الله (١٨٨٥-١٩٤٦م) في مدينة مشهد، وتتركز أسس مدرسة التفكيك على أربعة محاور[٢] هي:

١. تجاوز مفاهيم وتعريفات وأصول الفلسفة وعدم إدخالها في فهم النص الديني.
٢. الرجوع إلى أهل اللغة لفهم معاني المفردات اللغوية.
٣. الرجوع إلى المعصوم وحده في فهم القرآن.
٤. الاعتماد على كاشفية العقل والعلم.

وعلى هذا الأساس اتخذت المدرسة موقفًا شديدًا تجاه الفلسفة ورموزها، ما حدا بالبعض إلى تصنيفها كمدرسة اخبارية وإن كان اتجاهها وسطًا ما بين المدرستين الأصولية والاخبارية، ورغم أنّ هذا التباين ما بينها وبين المدارس الأخرى يتخذ نسقًا متصادمًا في بعض الأحيان إلا أنه ضمن الحراك العلمي في الحواضر العلمية فإن هذا التباين يعدّ طبيعيًا بل ومن ضرورات العلم وتطوّر الفهم وتنامي العقل.

ولهذا فإنّ هذه المقالة تتوجه لتبيان مباني تحصيل المعارف عند المدارس المختلفة ونقدها كما وتنتقد بشكل رئيسي لأحد رموز المدرسة الفلسفية في القرون الأخيرة وهو الملا صدر المتألهين الشيرازي رحمه الله، وبعض مبانيه، وتتمثل أهميتها في طرح رؤية هذه المدرسة التي باتت اليوم تملك تأثيرًا لا بأس به في الحوزات العلمية تجاه باقي الرؤى والتيارات الأخرى.

سفيد

---

(١) للإطلاع بشكل تفصيلي على أسس هذه المدرسة والنقودات عليها راجع دراسة الشيخ زكريا داوود بعنوان: **المدرسة الشيعية .. والتأصيل للعقل الشيعي**. المنشورة في مجلة البصائر الصادرة عن حوزة الإمام القائم عليه السلام العلمية، انظر:
http://albasaer.org/index.php/post/253

(٢) ما هي المدرسة التفكيكية عند الميرزا الأصفهاني؟، عباس الجمري، صحيفة الوقت البحرينية، العدد ١٧٩، ١٨ أغسطس ٢٠٠٦م.

مقدمة كيهان الثقافية

كيهان الثقافية تسعى دائمًا لإيجاد الأجواء المناسبة لطرح الأفكار والآراء والنظريات المختلفة والمتنوعة من قبل أصحاب الفكر و مفكري البلاد و تريد أن توجد الأجواء المطلوبة للرشد والتعالي الثقافي والأرضية المناسبة لحل المشاكل الثقافية وما يرتبط من حوادث و مسائل في مجتمعنا المتطور، و في النهاية: تريد أن تساهم في حل المشاكل الثقافية من خلال طرحها للبحوث المفيدة والبناءة وعلى هذا الأساس فهي تترقب البحوث الجديدة والمبتكرة في جميع المجالات، صحيح أننا لاقينا الأمريّن بسبب هذا الأمر إلا أننا على اعتقاد راسخ من الاستفادة من تجارب الآخرين.

و مرّة أخرى ندعو أصحاب الفكر والرأي المشاركة في مثل هذه البحوث الفكرية للسعي في بث بذور الفكر والمعرفة في البلاد و نطلب منهم مساعدة المجلة في هذه المهمة.



إنّ من أهم المواضيع الدينية التعرف على الطريق الصحيح للوصول إلى المعارف الدينية فإنه من المعلوم أن اعتقادات الإنسان تابعة لما يتبناه الإنسان من أفكار وما يملكه من نظام ومبادئ فكرية وفي النهاية إن اعتقادات الإنسان هي السبب في سعادته وشقاوته وضلالته.

وقد وجه بعض الأعزاء سؤالاً حول ميزان المعرفة في المسائل العقائدية وكانت هذه المقالة جوابًا لهذا السؤال وقد طبعت من قبل في مجلة كيهان "كيان" (كيهان فرهنگي) باللغة الفارسية.

نأمل من خلال هذه المقالة أن قد طوينا شوطًا من المسير للوصول إلى الإعتقاد الصحيح.

وهذه المقالة المطروحة هي حول التفكيك والفصل بين مدرسة الوحي والمدرسة الفلسفية تحت عنوان :«ميزان المعرفة» نقدمها للقراء الكرام.

كيهان الثقافية

العدد العاشر، السنة الثانية،

شهر دي ١٣٦٤ ش.ق.

(ديسمبر/يناير ١٩٨٥–١٩٨٦م)

بسم الله الرحمن الرحيم

ميزان المعرفة الدينية

لا يخفى أهمية الفكر الصحيح والمعرفة الصحيحة، وأنهما من أهمّ ما يمتاز به الإنسان. وهنا نلقي نظرةً –وباختصار– حول ميزان المعرفة عند المدارس الفكرية البشرية، ثم نقارن بينها وبين الرؤية الصحيحة للمعرفة.

ونبدأ في الحديث من نقطة مقبولة لدى كافة المدارس الفكرية المختلفة وهي أنّ التعقل والإدراك العقلي حجة وسند في الجملة، إلاّ أنّ المفكرين والمحققين في حقائق الوجود والكون قد اختلفت نظراتهم ومذاهبهم في تحصيل المعرفة الصحيحة حول موازين المعرفة.

مذهب الماديين

ميزان الوصول إلى الواقع والحقيقة عند هؤلاء الماديين ينحصر بكسب المعلومات عن طريق الحس والتجربة، ويرفضون كلّ المعارف الّتي لا تقوم على أساس الحس والتجربة.

وفي جواب هؤلاء نقول:

صحيح أنّ للحواس أهميةً بالغة للوصول إلى كثير من الحقائق حتى قيل: «من فقد حسًّا فقدْ فَقَدَ علماً» إلّا أنّ الأدلة الكثيرة دالة على بطلان هذا المذهب، نذكر بعضاً منها:

أ. إنّ من الأمور البديهية والقطعية خطأ الحواس، والكل يعترفون بأنّ الحواس تُخطئ، وعلى هذا الأساس فلابد للحسّ من ميزان يُستطاع بذلك الميزان اكتشاف خطأ الحواس، فلا يمكن أن تكون الحواس هي الكل بالكل في ميزان المعرفة.

ب. إنّ القواعد والقوانين العامة والكلية في العلوم المختلفة، كالحساب والهندسة والطبيعيات وسائر العلوم مقبولة، ومما يؤمن به كافة العقلاء، ولا يختلف فيها اثنان، مع أنها كلية ولم تخضع جزئياتها للحسّ والتجربة، بل ولا ربط لها بالحواس.

مذهب الصوفية

في اعتقاد هؤلاء أنّ ميزان المعرفة والوسيلة الّتي يتم بها الوصول إلى الواقع هو الكشف والشهود، ويقولون: «إن قَدَم أهل الاستدلال من خشب»[١]، والمراد أنّ طريقة أهل الاستدلال العقلي صعبة لا تمكّن صاحبها من الوصول إلى الحقيقة والواقع. فهم لا ينكرون أن للتعقل قيمة في كثير من المسائل العادية، بل يعتقدون أن قسماً من حقائق الوجود المهمة لا يمكن فهمها إلاّ بالكشف والشهود؛ ولذا فهم يعتبرون أنّ أهل الاستدلال العقلي عاجزون، ويقولون: إنّ الطريق للوصول إلى الحقائق المهمة هو: «طورٌ وراء طور العقل».

وهذا المذهب أيضاً باطل وغير صحيح، وإن كان يمكن الوصول إلى الحقيقة في بعض الأحيان من خلال المكاشفة والمشاهدة، إلاّ أنه لا يمكن جعل ذلك ميزاناً للمعرفة، وذلك:

أولاً: أنّ كثيراً من المكاشفات بعضها يناقض بعضها الآخر، وليست لها نتيجة واحدة، بل هي متفاوتة من شخص إلى آخر ومن مكاشفة إلى أخرى. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون ميزاناً لتشخيص الصحيح من الغلط والحق من الباطل، بل هي محتاجة إلى ميزان يشخّص حق المكاشفة من باطلها.

---

[١] شطر من بيت شعر، يستخدم لضرب المثل، وتكملته: «وإن قدم الخشب صعبة لا تمكن صاحبها من الحركة»

ثانياً: من المحتمل أن تكون المكاشفة الّتي شاهدها الإنسان نتيجة للأعمال الرياضية الروحية الّتي يقوم بها صاحب المكاشفة ولا ربط لها بالواقع. وهذا الاحتمال وارد وقويّ. كما نشاهد بعض الاثار تحصل نتيجة لاستعمال بعض الأدوية، ولا تكون تلك الاثار انعكاساً عن الواقع وبياناً له.

ثالثاً: أنّ كثيراً من المكاشفات مخالفة للأمور اليقينية والقطعية. إذاً لا يمكن أن تكون المكاشفة ميزاناً للمعرفة. كما في مكاشفة محيي الدين بن عربي في الفص الداوودي من كتابه فصوص الحكم حيث يقول: «ولهذا مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما نص بخلافةٍ عنه إلى أحد ولا عيّنه؛ لعلمه أنّ في أمته من يأخذ الخلافة عن ربّه فيكون خليفة عن الله مع الموافقة في الحكم المشروع، فلما علم ذلك (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يحجر الأمر». وقد علّق صاحب كتاب (مُمّد الهمم في شرح فصوص الحكم) ص ٤١٠، بعد شرحه للعبارة في الهامش بقوله: «لا شك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عيّن وصيًّا من بعده وهو أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، كما أنه لا شك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُعيّن خليفة حين ارتحاله وذلك لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما طلب قلماً وقرطاساً قال عمر: يكفينا كتاب الله وإنّ الرجل ليهجر، وانجر الأمر إلى النزاع والشجار وبحضور رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما هو مفصل في كتب الفريقين، وفي نفس الوقت يعلم الرسول بوجود الخليفة بين الأمة وهو في الحقيقة خليفة له. وإذا أردنا الجمود على ظاهر اللفظ فاللازم أن نقول: إنّ الشيخ (ابن عربي) ليس معصوماً وقد صرّح في أوّل

الكتاب بأنّي لست نبيًّا ولا رسولاً ولكني وارث وحارس لآخرتي، وحيث إنه ليس معصوماً ولا نبيًّا ولا رسولاً فقد وقع له الاشتباه في مكاشفته فكانت مكاشفته عن اللّه بحسب معتقده وسوابق أنسه وما أَلِفه.

مذهب الفلاسفة

في الطريقة الفلسفية العقل وحده هو الميزان في معرفة الحقائق، وكلّ شيء خارج عن الاستدلال العقلي لا اعتبار به ولا يمكن قبوله حسب مذهب هؤلاء، فهو كالمذاهب السابقة ليس الميزان فيه الشرع وما جاء به الوحي نفياً ولا إثباتاً. وبعبارة ثانية: إنّ الفيلسوف يعتمد البرهان والاستدلال ولا يهمّهُ أن تكون النتيجة موافقة للشرع أم مخالفة له. وبالنسبة إلى الفلاسفة الإسلاميين سوف نتعرض وباختصار للحديث عنهم.

من جملة الإشكالات الواردة على الطريقة الفلسفية هو ما يقال من مقبولية العقل[١] لكل ما يدركه ويصل إليه، في حين أننا نجد –كما يعترف بذلك كثير من العقلاء وبشهادة اختلاف الفلاسفة في الأصول والمباني الأساسية للتعقل والتفكير الى حدّ التناقض والتضاد في أكثر المسائل المهمة كما هو واضح بمراجعة أي واحد من الكتب الفلسفية– أن العقل لا طريق له إلى كلّ المسائل والحقائق. والواضح من الأمور لدى العقل محدود، وكثير من المسائل المهمة لا وضوح فيها عقلاً.

وأيضاً كثير من المسائل غير الخارجة عن حدود العقل مكتنفة بالدقة العقلية، بمعنى أنّ وصول العقل إليها دقيق، بحيث كان كشفها وإدراكها نادراً لكبار الناس.

---

[١] بالمعنى الواسع للعقل، يعني بما يشمل غير البديهيّات والبرهانيّات من الإدراكات الاعتبارية والاستحسانية والذوقية [المترجم].

والحاصل أنّ دائرة الاستفادة من العقل محدودة [١] ، ولا يمكن الاستفادة منه في جميع مجالات المعرفة. إذاً لا يمكن جعله هو الميزان الأول والأخير.

فاختلاف وتضارب مباني ونظريات شيخ الإشراق وشيخ الفلاسفة ابن سينا وملا صدرا وباقي الفلاسفة في أكثر المسائل المهمة في الفلسفة - كالإرادة، والقدم، والحدوث، وفاعلية الذات المقدسة الإلهية، والحركة في الجوهر، واتحاد العاقل والمعقول، وأصالة الوجود، والتشكيك في الوجود، ووحدة الوجود، ومسألة الروح، وكيفية الحشر والمعاد، وغيرها من المسائل الفلسفية - أدل دليل على أنّ المذهب الفلسفي خَطِرٌ لا أمان فيه. ولا نريد بذلك عدم حجيّة العقل؛ فإنّ حجية العقل ثابتة ومما لا كلام فيها، وإنما نريد أن نقول: إنّ دائرة العقل محدودة، ولا يمكن مع هذه المحدودية الكشف عن كلّ المباحث والمسائل بشكل قطعي وبكامل الاطمئنان.

وعلى هذا الأساس فالأسلوب الصحيح للوصول إلى حقائق الوجود والكون هو الاعتماد على العقل في دائرة المستقلات العقلية، الّتي يتفق فيها عموم العقلاء، بعد الإيمان بالله جل وعلا ورسالة خاتم الأنبياء وما جاء به الوحي. بعد ثبوت ذلك بدليل هذا العقل الفطري فقد انفتح باب آخر صحيح لتحصيل الحقائق يوجب الاطمئنان واليقين وهو: التدبر والتعقل فيما جاء به الوحي، فما يتضح ممّا جاء به الوحي بعد صحة الدليل

---

[١] في حدود البرهانيات والبديهيات لا غير [المترجم]

سنداً ودلالة هو الحقّ والحقيقة، وإن لم ينتخب الإنسان هذا الطريق فاحتمال وقوعه في خطر الاشتباهات العظيمة قوي جدًا.

وبما ذكرنا صرّح المرحوم الشيخ الأنصارى (رحمه الله) في بحث القطع من كتاب الرسائل، بعد منعه المؤكَّد عن الاعتماد والاتِّكال على البراهين العقلية والأقيسة المختلفة في استنباط الأحكام، حيث قال:

«وأوجب من ذلك ترك الخوض في المطالب العقلية النظرية لإدراك ما يتعلق بأصول الدين؛ فإنه تعريض للهلاك الدائم والعذاب الخالد. وقد أشير إلى ذلك عند النهي عن الخوض في مسألة القضاء والقدر».

وأجد من اللازم في هذا القسم من البحث أن أذكّر بأمور ثلاثة:

١- لو قيل: إنّ اختلاف الفلاسفة في المسائل المختلفة لا يكون دليلاً على عدم صحة الطريقة الفلسفية وعدم كونها موجبة للاطمئنان، نظير اختلاف الفقهاء، حيث لا يكون دليلاً على عدم صحة الفقة والفقاهة، فكذلك ما في المقام.

والجواب:

أنّ قياس طريقة الفلاسفة مع طريقة الفقهاء قياس مع الفارق، وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: أنّ الفلاسفة يدّعون القطع بالواقع والوصول إلى الحقيقة، ولكن مع ملاحظة اختلافهم الشديد فيما بينهم وملاحظة ما تقدم لا يمكن أن يحصل القطع من كلامهم[1]، بخلاف الفقهاء فإنهم لا يدّعون القطع ولا يضر اختلافهم بمدّعاهم؛ فإنهم يقولون: إنما يحصل لنا الاطمئنان من خلال الاستنباط بلا نفي لاحتمال مخالفة استنباطهم للواقع.

ثانياً: أنّ الفقهاء يعملون على أساس التكليف الشرعي، ومن المعلوم قطعاً ويقيناً هو وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وأخبار العترة الطاهرة والتمسك بالثقلين، وإذا ما حصل الاشتباه في الاستنباط لهم فهم معذورون؛ وذلك لأنهم لا طريق لهم إلّا ذلك، بخلاف الفلاسفة فإنهم يدّعون الوصول إلى الواقع، وحيث إنّ عملهم يرتبط بالمسائل العقائدية والمعارف الإلهية لابد وأن يكون أسلوبهم وطريقهم في ذلك يقينيًا، وإذا ما حصل الاحتمال ولو واحد بالألف من أنّ هذا الطريق لا يوصل إلى الواقع فيلزم عليهم عقلاً أن يُعرضوا عنه، ولابد لهم من أن يلتزموا بالواقع على ما هو عليه من الإجمال والإبهام، بل اللازم قبول ما جاء به الوحي بعد الاعتقاد به.

---

(١) وتوضيح ذلك: أنّ صورة الاستدلال وإن كانت بديهية إلاّ أنّ الإشكال في مادة الاستدلال، فإن ما يعتمد عليه الفلاسفة في استدلالهم لا هو من البديهيات ولا من البرهانيات الّتي ترجع إلى البديهيات أيضاً، بل يعتمدون على أمور موروثة مما قبل الإسلام تقليداً بلا دليل يدل عليها، بل مجرد ادّعاءات دلّ العقل على بطلانها. وحينئذ نقول لهم: إنه مع اختلافكم الشديد، وتضاربكم وتناقضكم في المباني والنتائج، كيف يمكن القول بأنّ استدلالاتكم عقلية أوّلاً؟ وأنها توجب القطع ثانياً؟ فإنّ الأمر العقلي مما لا يختلف فيه العقلاء بعد رجوعه إلى البديهيات والوجدانيات. [المترجم].

٢- نُقل عن المرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري أعلى الله مقامه الشريف أنه قال: «يلزم الابتعاد عن الاستدلالات العقلية في أصول الدين».

في حين أنّ الفقهاء يقولون: «لا يجوز التقليد في أصول الدين».

فكيف يمكن التوفيق بين هذين الكلامين.

ونقول في الجواب:

إنّ هذين المقالين لا تنافي بينهما - مضافاً إلى أنّ الاجتهاد في بعض الموارد يكون على أساس الأدلة النقلية كالمعاد والإمامة - لأنه ليس المقصود من عدم الاستدلالات العقلية في أصول الدين هو نفي المستقلات العقلية من الاستدلال؛ وذلك لوضوح حجية المستقلات العقلية وقطعيتها. وعلى هذا فلزوم الاجتهاد في أصول الدين يكون على معنيين:

أ. أصول الدين على أساس المستقلات العقلية والعقل الفطري مثل مسألة التوحيد والنبوة.

ب. أصول الدين على أساس الأدلة المعتبرة من الوحي مثل مسألتي المعاد والإمامة.

وعلى أي حال فلا يجوز تقليد الآخرين في أصول الدين بل لابد من فهم المطالب بشكل واضح، والوصول إليها بواسطة العقل الفطري ولو من خلال الاستعانة بتذكير الآخرين. هذا فيما يرتبط بمسائل التوحيد والنبوة.

أو أن تُفهم المطالب في سائر المسائل من خلال الكتاب والسنة.

٣- إنّ ما قيل من أنّ الفلاسفة لا يهمهم مطابقة ما يصلون إليه لما جاء به الوحي والأدلة الشرعية لا نفياً ولا إثباتاً إنّما هو بالنسبة إلى الفلاسفة غير الإسلاميين، أو أنّ المراد أنّ الطريقة الفلسفية بالمعنى الخاص للكلمة - في نفسها كذلك كما قال الفيلسوف الشهير الحاج ملا هادي السبزواري في شرح منظومته - قسم الفلسفة ص ٦٨، حول هذه العبارة:

- ضرورة القضية الفعلية
- لوازم الأول والماهية

«قولنا المتصدين لمعرفة الحقائق وهم أربع فرق، لأنهم إما أن يصلوا إليها بمجرد الفكر، أو بمجرد تصفية النفس بالتخلية والتحلية، أو بالجمع بينهما. فالجامعون هم الإشراقيون، والمصفّون هم الصوفية، والمقصرون على الفكر إما يواظبون موافقة أوضاع ملة الأديان وهم المتكلمون، أو يبحثون على الإطلاق وهم المشاؤون. والفكر مشي العقل إذ الفكر حركة من المطالب إلى المبادي ومن المبادي إلى المطالب».

ولكنّ الفلاسفة الإسلاميين قد صرّحوا مراراً أنّ الفلسفة الّتي على خلاف الشرع والشريعة مرفوضة، وأنّهم متعبدون بما تقتضيه الموازين الشرعية.

وتقول: إنّ هنالك جمعاً من الفلاسفة الإسلاميين الّذين لهم باع طويل واطلاع كامل في الأصول والمباني الفلسفية يستفيدون من الفلسفة فقط في خصوص المسائل الّتي لا ترتبط بالإسلام، أو الّتي توافق الدين، وأمّا المسائل الّتي لا تتطابق مع الدين والشريعة والمخالفة للموازين والأدلة الشرعية كاملاً، فإنّهم يتعبدون ويعتقدون بما جاء به الوحي.

وفي الحقيقة هؤلاء العلماء مظهر العالم الرباني والفقيه في الدين.

وهنالك جمع آخر من الفلاسفة الإسلاميين مع تقيدهم بالإسلام إلّا أنّهم عملاً يتابعون في البحوث العلمية الأفكار والآراء للشخصيات والنوابغ البشرية، ويعتمدون عليهم في مختلف المسائل، وإذا ما كانت أفكارهم مخالفة للشريعة يسعون لتوجيه الشريعة وتأويلها بالشكل الّذي يحصل التوافق والانطباق بينهما كما ستأتي بعض الشواهد على ذلك.

مذهب العرفاء والإشراقيين

العرفاء والاشراقيون مع اختلافهم يشتركون في جهة واحدة وهي:

الجمع بين العقل والكشف، ويعطون لكلّ واحد منهما قيمة إلى حد ما، لا بمعنى أنه لابد من الجمع بين العقل والكشف في الكشف عن الحقائق في كلّ الموارد، بل بمعنى أنّه يصح عندهم انتخاب أي من الطريقين.

ولا يخفى ممّا تقدم بطلان هذا المذهب أيضاً وترد عليه الإيرادات والإشكالات الواردة على المذهب الثاني والثالث أيضاً.

وهؤلاء يؤلون ويوجهون الآيات والروايات أكثر من الفلاسفة ويتمسكون بالمتشابه من الآيات والروايات لأجل إثبات آرائهم ونظرياتهم.

مذهب الوحي ومدرسته

من خلال ما تقدم من مباحث نحصل على هذه النتيجة: أنّ الميزان في الكشف عن الحقائق هو العقل الفطري، وحسب الاصطلاح: العقل حجة قطعية في حدود المستقلات العقلية. وحينئذ عن طريق هذا العقل الفطري يصل الإنسان إلى طريق الوحي ومدرسته، ويعتقد بالله جل وعلا ورسالته في الحياة، وحينئذ سيكون الميزان هو مذهب الوحي، وعليه فلابد من التدبر فيه والاستفادة منه، نظير من يحمل شمعة يستضيء بنورها للبحث عن اللآلئ والجواهر النفيسة فيما بين الأحجار والأشواك في صحراء مظلمة وإذا به قد واجه منبعاً عظيم النور، فمن الواضح والبديهي أنه لابد وأن يستفيد منه أحسن ما يكون.

ولا يخفى أنّ من يعتمد ويستفيد من منبع الوحي سوف لا يواجه مطالب مخالفةً للعقل الفطري، وإذا وقع الاختلاف بين ما يُستفاد من القرآن والحديث وبين استدلالات الفلاسفة وغيرهم (الّتي يناقض بعضُها بعضاً) فمن البديهي تَقَدُّمُ ما يُستفاد من مدرسة الوحي، ولا يمكن توجيهه ولا تأويله على ما يقوله الفلاسفة وغيرهم؛

وذلك لاحتمال الخطأ في استدلال كلّ واحد منهم، بل من المحتمل خطأ مجموع استدلالاتهم الّتي تسمّى بالعقلية[1].

وقد أرشدنا القرآن إلى هذه الحقيقة وهي التعقل والتفكير والتمسك بالكتاب والعترة يعني مدرسة الوحي، وبذلك نطقت الأحاديث الشريفة أيضاً وسنشير إلى بعض منهما. ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ هذه الشواهد الّتي سنذكرها إنما هي بعد الإيمان بالوحي بواسطة الدليل العقلي:

١- {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مّا خَلَقَ اللّه السّموات والاَرْضَ وما بَيْنَهُما إلّا بِالْحَقِّ وأَجَلٍ مُسَمّىً وإنّ كَثِيْراً مِنَ النّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُوْنَ}[الروم/٨].

٢- {وَما آتاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوْهُ وما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا}[الحشر/٦].

٣- عن أبي عبداللّه (عليه السلام) قال: «حُجّةُ اللّه عَلَى الْعِبَادِ النّبيُّ، وَالْحُجّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللّه الْعَقْلُ»[أصول الكافي/ج١/كتاب العقل والجهل].

---

[1] من الواضح أنه لو كان – كما في بعض الموارد – ظاهر الدليل النقلي مخالفاً للعقل النظري والمستقلات العقلية أو الأدلة القائمة على الأسس البديهية وكان الدليل النقلي قطعيًا فلابد من تأويله، وفي مثل هذه الموارد قد جاء تأويله وتوجيهه في الأدلة النقلية نفسها، ومن هذا القبيل الآية الشريفة: (إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) [القيامة/٢٣] و (نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي) [الحجر/ ٢٩]

وإذا لم يكن الدليل النقلي صحيح السند ولم يكن واضح التأويل والتوجيه فهو مردود ومطروح.

٤- «.. يَا هِشَامُ مَا بَعَثَ اللَّـهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إِلَّا لِيَعْقِلُوا عَنِ اللّه»[أصول الكافي/ج١/كتاب العقل والجهل].

٥- «مَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ أَزَالَتْهُ الرِّجَالُ، وَمَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ وَلَمْ يَزُلْ»[أصول الكافي/ج١/خطبة الكتاب].

بعد هذه الموجز في بيان الميزان الصحيح للوصول إلى الحقائق نقارن بعض النتائج المستفادة من المنهج الصحيح، وهو التعقل والتدبر في مدرسة الوحي، مع ما تقوله المذاهب البشرية في ذلك.

المعاد الجسمي والروحي

من المسائل الّتي يتضح فيها التناقض بين ما جاءت به الشريعة –القرآن والأحاديث– وما يقوله الفلاسفة والعرفاء مسألة المعاد، وحول تحقيق هذه المسألة نبدأ بمراجعة القرآن والآحاديث المعتبرة بالتدقيق فيما يستفاد منهما، قبل إشباع الذهن والقلب بغير مدرسة الوحي، ثم نشرح نظرية الفيلسوف الشهير ملا صدرا، الّتي أصبحت طريقته الفلسفية والعرفانية في القرون الأخير محوراً للفلسفة والعرفان.

وحينذاك سوف نقف على مغايرة نظريته لما هو المستفاد من الآيات الشريفة والأحاديث المعتبرة، وسوف نلاحظ من خلال البحث بعض تأويلات هذا الفيلسوف الشهير.

في تحقيقنا للآيات والأحاديث حول جسمانية المعاد سوف نشاهد، بالدلالات الصريحة والقطعية، أنّ عالم القيامة ونشأتها يكون بالأبدان المكونة من هذه العناصر الترابية (الّتي هي أجزاء الإنسان نفسها في دار الدنيا) والأرواح، وأنّ الإنسان يحشر ببدنه وروحه، لا أنّ عالم القيامة أرواح بلا أجساد أو أرواح مع صور جسمانية حصلت بإنشاء النفس لها ليس لها إلّا المقدار، ولا أثر للعناصر المادية فيها.

❖ الآيات القرانية الكريمة:

الآيات القرآنية كثيرة جدًا نذّكر بأربع منها:

١- {وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وهِيَ رَمِيْمٌ} [يس/٧٨-٧٩].

في هذه الآية الشريفة نجد التصريح الإلهي بإحيائه وإنشائه العظام البالية نفسها الّتي أصبحت رميماً، وبيّن لنا قدرته على خلق تلك العظام الّتي لم تكن ثم أوجدها.

٢- {أَيَحْسَبُ الاِنْسانُ أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظامَهُ} [القيامة/٣].

وفي هذه الآية الشريفة يأتي الجواب لتصورات ذلك الإنسان المنكر للقيامة، بإنكاره لإعادة العظام إلى تركيبها السابق وجمعها بعد تلاشيها وانعدامها، بالتوبيخ على هذه التصورات، وقد جاء الإعلان عن جمع هذه العظام بعد تفرقها من خلال التوبيخ والاستنكار اللذين أبدتهما الآية المباركة لهذه الافكار والتصورات.

٣- {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنّ اللّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ} [البقرة/٢٥٩].

وفي هذه الآية الشريفة يتجسم لنا المعاد والإحياء بعد تلاشي حمار عُزير لمدة مائة سنة، وذلك بإنبات اللحم على العظام. والآية تعلن بكلّ صراحة عن كيفية المعاد والعلاقة بين الروح والأجزاء الدنيوية للإنسان.

٤- ﴿وَأَنَّ اللّه يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج/٧].

فمن الواضح أنّه ليست الأرواح في القبور وإنّما هذه الأبدان المتلاشية هي الّتي في القبور ثم تُحيا.

❖ الأحاديث الشريفة:

الروايات المعتبرة حول المعاد كالآيات كثيرة جدًا، ونذكر بعضاً منها:

١- في الإحتجاج: رَوَى هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَأَلَ الزِّنْدِيقُ أَبَا عَبْدِ اللّه (عليه السلام) فقَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ النّاسِ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً؟! قَالَ: بَلْ يُحْشَرُونَ فِي أَكْفَانِهِمْ. قَالَ: أَنّى لَهُمْ بِالْأَكْفَانِ وَقَدْ بُلِيَتْ!. قَالَ (عليه السلام): إِنّ الّذِي أَحْيَا أَبْدَانَهُمْ جَدّدَ أَكْفَانَهُمْ..»[1].

٢- عن الصادق (عليه السلام) قال: «إِذَا أَرَادَ اللّـهُ عَزّ وَجَلّ أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ»[2].

٣- «عن الصادق (عليه السلام) قال: «أَتَى جَبْرَئِيلُ رَسُولَ اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) فَأَخَذَهُ فَأَخْرَجَهُ إِلَى الْبَقِيعِ فَانْتَهَى بِهِ إِلَى قَبْرٍ فَصَوّتَ بِصَاحِبِهِ، فَقَالَ: قُمْ بِإِذْنِ

---

[1] الاحتجاج للشيخ الطبرسي، احتجاجات الإمام أبي عبد الله عليه السلام: ومن سؤال الزنديق الذي سأل أبا عبد الله عليه السلام مسائل كثيرة: ٢٤٦/٢ (انتشارات الأسوة)

[2] بحار الأنوار للعلامة المجلسي، كتاب العدل والمعاد، باب اثبات الحشر وكيفيته، ج٨٧ ح١ و٣٣.

اللّـهِ، فَخَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ للّه، وَاللّـهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: عُدْ بِإِذْنِ اللّه. ثُمّ انْتَهَى بِهِ إِلَى قَبْرٍ آخَرَ، فَقَالَ: قُمْ بِإِذْنِ اللّه، فَخَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ مُسْوَدُّ الْوَجْهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا حَسْرَتَاهْ يَا ثُبُورَاهْ. ثُمّ قَالَ لَهُ جَبْرَئِيلُ: عُدْ إِلَى مَا كُنْتَ بِإِذْنِ اللّه، قَالَ يَا مُحَمّدُ: هَكَذَا يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا تَرَى..»[١].

من مجموع هذه الآيات والروايات، وهي نماذج لقسم من الآيات والروايات، نفهم وبشكل واضح أنّ نشأة القيامة هي عبارة عن حشر الناس بأبدانهم العنصرية المادية الدنيوية بالإضافة إلى أرواحهم.

[١] بحار الأنوار للعلامة المجلسي، كتاب العدل والمعاد، باب اثبات الحشر وكيفيته، ج٧ ح٣٩.

نظرية ملا صدرا [صدر المتألهين] حول المعاد الجسماني

لا يخفى على أحد أنّ ملا صدرا فيلسوف معروف، وقد صرّح هذا الفيلسوف في مواضع كثيرة من كتبه أنّ المُعاد في المَعاد يوم القيامة هو هذا البدن بعينه، إلّا أنه صرح مراراً أنّ المراد من عينيّة هذا البدن ليس المراد الجسم العنصري المادي، بل المراد صورة البدن بلا مادة، يعني البدن القائم بالنفس والمُنشأ بواسطة النفس، والّذي يكون من ملكاتها، وهذا النوع من المعاد مختص للمتوسطين من الناس، وأمّا الكاملون من الناس فقيامتهم بالروح فقط بلا بدن حتى مثل هذا البدن الآنف الذكر.

والآن نورد قسماً من عباراته حيث يقول:

١- «فكل جوهر نفساني مفارق يلزم شبحاً مثاليًّا ينشأ منه بحسب ملكاته وأخلاقه وهيئاته النفسانية بلا مدخلية الاستعدادات وحركات المواد كما في هذا العالم شيئاً فشيئاً..» إلى أن قال: «فإن قلت: النصوص القرآنية دالة على أنّ البدن الأخروي لكل إنسان هو بعينه هذا البدن الدنياوي له، قلنا: نعم ولكن من حيث الصورة لا من حيث المادة، وتمام كلّ شيء بصورته لا بمادته»[1].

٢- «وأنزل من هذه المرتبة من الاعتقاد في باب المعاد وحشر الأجساد اعتقاد علماء الكلام، كالإمام الرازي ونظرائه، بناء على أنّ المعاد عندهم عبارة عن جمع متفرقات

---

[1] الأسفار لصدر المتألهين، ج٨ ص١٥٣، بيروت. وانظر كذلك الصفحات: ٢١، ٣٩، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٦، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨ تجد ما نقلناه بوضوح.

أجزاء ماديّة لأعضاء أصلية باقية عندهم» إلى أن قال: «ولا يخفى على ذي بصيرة أنّ النشأة الثانية طور آخر من الوجود يباين هذا الطور المخلوق من التراب والماء والطين، وأنّ الموت والبعث ابتداء حركة الوجود إلى الله أو القرب منه لا العود إلى الخلقة المادية والبدن الترابي الكثيف الظلماني»[٢].

فمن الواضح مما نقلناه عنه من هذه الكلمات مما يغاير ما نطق به القرآن الكريم والأحاديث المعتبرة.

نعم يصرح ملا صدرا بجسم وجسمانية هذا البدن المثالي كثيراً، إلّا أنّه صرّح أيضاً بأنّ المقصود من هذا البدن ليس البدن والجسم العنصري المادي.

---

(٢) المصدر السابق.

رد نظرية ملا صدرا على لسان ثلاث شخصيات

ونختم هذا المقال بنقل كلمات ثلاث شخصيات في العلم والتقوى وهم المرحوم آية الله ميرزا أحمد الآشتياني (رحمه الله)، وآية الله الحاج الشيخ محمد تقي الآملي (رحمه الله)، والمرحوم آية الله السيد أحمد الخوانساري (رحمه الله) الّذي شرح الموضوع بشكل جيد وبيّن مخالفة نظرية ملا صدرا لما هو المستفاد من الشرع –الكتاب والسنة–.

١– يقول المرحوم الميرزا أحمد الآشتياني (رحمه الله) بعد إثبات أصل المعاد:

«الثاني أنّه بعد ما ثبت بحكم العقل والنقل لزوم المعاد ويوم الجزاء وقع البحث في أنّ ما ينتقل إليه الأرواح، في القيامة الكبرى ويوم الحساب، هل هو عين الأبدان الدنيوية البالية العنصرية بشمل شتاتها وجمع جهاتها بأمره تبارك وتعالى كما يقتضيه الاعتبار، حيث إنّ النفس خالفت أو أطاعت وأنقادت لمّا كانت بتلك الجوارح، فحسن المجازات وكمال المكافاة بأن يكون المجازى عين من أطاع أو عصى أم لا، بل تنتقل إلى صورة مجرّدة تعليمية ذات امتداد نظير القوالب المثالية والصور المرآتية؟».

الى أن قال: «ما وقع التصريح به في القرآن الكريم هو الأوّل، كما في جواب سؤال إبراهيم عليه السلام حيث قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ... حَكِيم} وقوله تعالى في جواب {أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن

نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} وقوله عزّ شأنه في جواب سؤال {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} وغير ذلك من الآيات».

إلى أن قال: «ولكن جماعة من أهل الحكمة المتعارفة ذهبوا لشبهة عرضت لهم إلى الثاني، ولابد لنا من حلّها ودفعها بعون اللّه تعالى»[1].

ثم إنّه ذكر خلاصة من مسلك ملا صدرا وانتقده بقوله: «فإنكار المعاد الجسماني وعود الأرواح إلى الأجسام، الّذي يساعده العقل السليم، يخالف نصّ القرآن بل جميع الأديان، وإنكار لما هو ضروري الإسلام، أعاذنا اللّه تعالى من زلّات الأوهام وتسويلات الشيطان»[2].

٢- ويقول المرحوم آية اللّه السيد أحمد الخوانساري (رحمه اللّه): «ثم إنّ البدن المحشور في يوم النشور البدن العنصري كما هو صريح الآيات والأخبار، وقد يقال: إنّ المحشور ليس البدن العنصري، بل البدن المثالي المنشأ بإنشاء النفس بإذن اللّه تعالى والمختلف باختلاف الملكات الحاصلة في الدنيا».

(١) لوامع الحقائق في أصول العقائد للعلامة الآشتياني، مبحث المعاد، ج٢، ص ٤٠-٤١.
(٢) المصدر السابق.

ثم استرسل في ذكر الشبهات والجواب عنها فقال: «وفي المقام شبهات تدعو إلى القول المذكور»[1].

وقد أجاب عن تلك الشبهات بعد بيانها ثم ذكر الآيات والروايات المثبتة للمعاد بالمعنى الّذي ذكرنا.

٣- ويقول المرحوم آية الله الميرزا محمد تقي الآملي (رحمه الله) الفقيه الفيلسوف في تعليقته على شرح المنظومة -درر الفوائد- بعد توضيح مختار المصنف والتعليق عليه:

«هذا غاية ما يمكن أن يقال في هذه الطريقة ولكنّ الإنصاف أنّه عين انحصار المعاد بالروحاني لكن بعبارة أخفى، فإنّه بعد فرض كون شيئية الشيء بصورته وإنّ صورة ذات النفس هو نفسه وإنّ المادّة الدنيوية لمكان عدم مدخليتها في قوام الشيء لا يحشر، وإنّ المحشور هو النفس غاية الأمر إما مع انشائها لبدن مثالي قائم بها قياماً صدوريًا مجرداً عن المادّة ولوازمها إلّا المقدار كما في نفوس المتوسطين من أصحاب الشمال أو أصحاب اليمين، وأمّا بدون ذلك أيضاً كما في المقرّبين. (ولعمري) أنّ هذا غير مطابق مع ما نطق عليه الشرع المقدس على صادعه السلام والتحيّة، وأنا أُشهد الله وملائكته وأنبيائه ورسله أنّي أعتقد في هذه الساعة، وهي ساعة الثلاث من يوم الأحد الرابع عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٦٨، في أمر المعاد الجسماني بما نطق به القرآن

---

[1] العقائد الحقة للسيد علي الصدر، اثبات المعاد، ص ٢٥٥.

الكريم، واعتقد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وعليه أطبقت الأمّة الإسلامية...»[١].

وفي هذه المقالات الثلاثة قد عرفت ردّ هؤلاء الأعلام على نظرية ملا صدرا، وأثبتوا المعاد الجسماني بالمعنى الّذي يقول به عموم الفقهاء والمحدثون.

(١) درر الفوائد، الآملي، في المعاد الجسماني، ٢/٤٦٠، ط: دار التفسير للطباعة والنشر، قم.